الرجل صاحب الكلب

قصـــة مصرية : للأستاذ محمود تيمور

حدثني الراوى قائلا :

عندما كنت طالبا فى مدرسة الزراعة بالجيزة كنت أتردد فى أوقات فراغى على قهوة صغيرة بالقرب من الشارع النعمومى يجرى بجوارها جدول صغير وتتهدل فوقها أغصان شجرة عتيقة . وكنت أعتبرها حلقة الاتصال بين الحضر والريف أو بين المدنية والحياة الساذجة البدائية . فبينما تكون جالسا فى مقعدك البسيط تشرب القهوة فى هدوء وتصغى الى خرير الماء وتشم رائحة النبات اذ بك تسمع دوى ترام أوسيارة ويتملى أنفك برائحة البنزين والتراب .

وكان يتردد على هذه القهوة رجل بدين الجسم كروى الوجه بأنف أفطس وعيون صغيرة يلبس بدلا من المعطف جرملة من اللون الأزرق الكالح ويلف رأسه بشال قديم مهلهل . وكنا فى ذلك الوقت على أبواب الشتاء . وكنت ألاحظ عليه مظاهر الجربعة . واعتقدت أنه من أرباب المعاشات الفقراء . وأذكر أنى لم أذهب الى القهوة مرة واحدة ولم أجده . أراه دائما فى ركنه المعهود بجوار باب القهوة منتفخا فى جلسته يدخن النارجيله ويحتسى القهوة ويزعق بين فترة وأخرى على الخادم يصدر اليه أوامره المعضة . يصحب معه دائما كلبا أسود بشع الهيئة من فصيلة الأرمنت . يزعج القهوة بنباحه الثقيل . كان سيده يبالغ فى تدليله والاعتناء به . ويكلمه ببعض كلمات انجليزية بلهجة سقيمة لا تتعدى قوله . كام هير جيمى كام هير ماى دير (١)

ولا أدرى ما الذى دفعنى الى أن أهتم بهذا الرجل وكلبه وأدقق فى ملاحظتى اياهما . مع تفورى منهما .

وذهبت مرة الى القهوة فوجدت عويسا ماسح الأحذية يتشاجر معه . وكان الرجل يشتم الغلام بصوته العريض الوقح وهو منتفخ الأوداج محمر العين يبصق أمامه بصقات متوالية . ورأيت الكلب ينبح ماسح الأحذية بشدة ويجذب بأسنانه طرف ثوبه . فتحاشيت التدخل بينهما وقصدت الى مكانى بجوار الجدول ومعى كتاب الزراعة المصرية لأذاكر فيه . وجاء صاحب القهوة فحسم الخلاف وشتم عويسا وأرضى الافندى ببعض كلمات لا تخلو من تملق . وترك الكلب ثوب الغلام وذهب الى سيده فنظر اليه مليا وهو يصبص بذنبه ثم تمدد تحت أقدامه ونام .

وجاء عويس يمسح لى حذائى كالمعتاد فمددت له قدمى فى حركة آلية غير ملتفت اليه وانشغل الغلام بالمسح وأنا بالتفكير وبعد برهة خاطبت عويسا ووجهى لا يفارق الكتاب ..

— من يكون هذا؟

فأجابنى وهو منهمك فى عمله .

— واحد حكيم لا طلع ولا نزل . يدعى أنه كان حكيمباشى فى الجيش فى الزمن الماضى

— والآن؟

— على المعاش

ثم رفع رأسه الى وقال:

تصور يا بيه أنه يريد أن يعطينى قرش تعريفة واحد فى مسح حذائه ووضع شريط جديد له . وأى جزمة هذه التى مسحتها . ربنا لا يوريك أو كذلك ان الورنيش لم يمسها منذ ان كان جنابه فى الجيش . .

ولاحظت على الرجل انه يسارقنا النظر فاردت أن أحول مجرى الحديث ولكننى لم استطع اذ كان عويس قد اندفع يقول :

قرش تعريفه واحد نظير مسحة وشريط جديد . أللهم العفو يا سيدى . . هذا خلاف الخدمات التى اؤديها له بدون مقابل . ولو كان شخصا فقيرا لقلنا نخدمه لوجه الله ولكنه رجل عاكم . عاكم تمام .

وسمعت الحكيمباشى يصق بشدة على الأرض فخفف عويس من حدته وهمس قائلا :

— تصدق بالله لو ذهبت الى بيته لظننت انك فى مزبلة أو مربط بهائم... لم كل هذا والدنيا أخرتها موت . قضك واردم على هذه السيرة . .

وغبت عن القهوة بضعة أيام . وبينما كنت مرة فى الترام منهمكا فى قراءة البلاغ اذ شعرت بشخص يدخل العربة — وكانت مزدحمة بالركاب — ويحشر نفسه بين الجالسين وسمعت همهمة استياء من كل ناحية . ورفعت بصرى لأرى من الداخل فوقع بصرى اول وهلة على كلب اسود ضخم بشع الهيئة عرفته على الفور . ورأيت أمام مقعدى الحكيمباشى يمسح وجهه المحتقن المعقد بشدة حرملته على أكتافه ويدفع جاره وهو يدمدم . والتقت أعيننا . وشعرت بأنى ابتسم له . وشاهدته يجيبنى مجاملة بابتسامة سطحية خاطفة . وبعد لحظات قال لى متدفعا :

— يدفع الواحد منا ستة مليمات لهذه الشركة الملعونة ليحظى بمثل هذه الجلسة المرهقة . نحن آدميون ولسنا بهايم حتى يحشرونا هكذا كأننا فى عربة للحيوانات . لماذا لا يزيدون عربة على كل قطار فى مثل هذه الاقاوت . أقسم بالله ان سوارس الذى تدفع فيه ثلاثة مليمات فقط أحسن ألف مرة من هذا الترام .

(١) تعال هنا يا جيمى تعال هنا يا عزيزى

فوافقته موافقة تامة . وأخذت أدم له الشركة بدورى . فظهر على وجهه الارتياح وأخـــذ يناقلنى الحديث بلهجة ودية ومن غير تكلف كأنه يعرفنى منذ أعوام . وقال :

ـ لم تحضر الى القهوة منذ أيام

ـ كنت مشمولا جدا . لقد هجمت علينا الدروس .

ـ إيه يا بنى لو كنت معنا فى الجيش لاستصغرت من شأن مشاغلك . . كنت أنا لا أجد الوقت الكافى لاتناول كوب اللبن فى الصباح

ـ حضرتك خدمت فى الجيش مده طويلة ؟

فأجاب بلهجة متزنة وهو يعبث بسلسلة ساعته .

ـ ٤٥ سنة . . ٤٥ سنة وأنا أعيش فى الخيام وعلى ظهور الجياد . أضمد جروح الجرحى وأعنى بالمصابين . ثم أخرج بعد هذه الخدمة الطويلة العريضة الشاقة بمعاش لا يسوق العير ولا فى الفير . . . لا مكافأة ولا يحزنون . .

ثم مال على وهو يبتسم وقال :

ـ ألم تسمع المثل القائل : آخر خدمة الغز علقة .

وكان قد خلا مكان بجواره فنظر إلى كلبه الذى كان ممددا تحت أقدامه وقال له وهو يفرقع بأصبعه . .

ـ كام هير جيمى . كام هير مای دير .

وأشار له الى المحل الخالى . فقام الكلب وبعد أن تمطى وتثاءب فى هيئة شنيعة قفز بجوار سيده والناس يرمقونه بالنظر الشزر . والتفت الى الحكيمباشى وقال وهو يلاطف كلبه . .

ـ لم أر فى حياتى كلبا وفيا كجيمى هذا . انه انسان وليس بحيوان . لقـــد استغنيت به عن البنين فهو ابنى . وعن الخدم فهو تابعى الامين . وعن الحراس فهو حارسى الذى يبذل دمه فى سبيل . أتصدق أننى لا أعاشر سواه فى منزلى .

ثم نظر الى كلبه وقال :

ـ أوه جيمى أى لاف يو فرى ماتش (١)

وكان بجوارى شيخ معمم فسمعته (يمصمص) بشفته وينمتم قائلا :

ـ لله فى خلقه شؤون !

ووقف الترام على احدى المحطات ودخل العربة محمد افندى زكريا الموظف ببنك الكومرسيال الايطالى فسلم على فى بشاشة . ثم التفت الى الحكيمباشى وقال :

ـ أهلا أسعد بك . فى غابة الأشواق يا حبيبى

وتحدثنا برهة فى العموميات . ثم رأيت أسعد بك الحكيمباشى ومحمد افندى زكريا يفتحان باب البحث فى المسائل المالية . فسكت وأصغيت لهما . وأخذا يتعمقان قليلا قليلا فلم أعد أفهم من كلامهما شيئاً . وكانت أمثال الكلمات . الكامبيو والبورصة وسندات الشركة اللجيكية وأسهم البنك العقارى والرنت الفرنساوى تطن فى أذنى طنينا مزعجا . وارتسمت على وجه أسعد بك أشد مظاهر الاهتمام فوجدت عينيه تحملقان فى وجه محدثه حملقة الجائع الشره . وخلتى أنفه تتسعان كأنهما تستجديان الهواء . . . وأخيرا وصلنا الجيزة فسلم أسعد بك علينا ونزل لأنه كان يسكن هذه البلدة . أما أنا ومحمد افندى زكريا فتابعنا ركوبنا الى الأهرام اذ كنا نرغب فى تناول الشاى فى (مينا هاوس) وملت على محمد افندى وقلت له .

ـ ان لصاحبك باعا طويلا فى الأمور المالية .

ـ انه يا عزيزى يلعب بالجنيهات فى سوق المضاربة كما تلعب الأولاد (بالبلى)

ـ وهل يكسب ؟

ـ لم أسمع مرة واحدة أنه خسر .

ومرت الايام وكثرت مقابلتى لأسعد بك فى القهوة وتوثقت بينى وبينه روابط الصداقة . واتضح لى أنه شخص غير مزعج كما توهمت قبل معرفتى اياه . فكان اذا رآنى فى ركنى المعهود منكبا على كتابى أذاكر درسى احترم عملى ولم يفتح فمه بكلمة . أما اذا لاحظ أننى لا عمل لى دعانى الى الجلوس معه . ولا أذكر أنه أكرمنى بفنجان قهوة . أو قدم لى سيكارة واحدة . أما حديثه فكان سخيفا ولكنه مسل للغاية . معظمه حكايات عن حياته الماضية فى الجيش ونوادر عن كلبه لا تخلو طبعا من مبالغات ومغالطات . وكان اذا تكلم عن كلبه لمعت عيناه ببريق غريب وخيل اليك أنه يتكلم عن ابن وحيد له قد وهبه كامل محبته وحنانه .

وتغيبت بضعة أيام عن القهوة ثم عدت اليها فكان أول شىء لاحظته هو أن أسعد بك غير موجود . ولما جاءنى غلام القهوة سألته عنه فلم يفدنى شيئا . وبعد قليل ظهر عويس ماسح الأحذية . وكان مسرورا يهبط بظهر قرشته صندوقه فسألته :

ـ ما الخبر يا ولد ؟

ـ خبر عظيم جدا يا بيه . لقد أخذوا كلب أسعد بك فى عربة الكلاب .

ـ ياشيخ !

ـ شاهدت ذلك بعينى رأسى .

ونالنى شىء من الأسف . ولكننى لم أهتم بالأمر كثيرا . واعتقدت أننى سأرى فى الغد صديقى وكلبه يحتلان ركنهما المختار فى القهوة .

(١) أوه جيمى . أنا أحبك كثيرا

وبعد انقطاعي بضعة ايام ذهبت الى القهوة فوجدت أسعد بك وبحث بعيني عن الكلب فلم أجده. وكانت عيناصديقي مرتدتين حائرتين ووجهه محتقنا . وسلمت عليه فسلم علي فانتصب وصمت فلم أشأ أن أثقل عليه . وقصدت الى مكاني وفتحت كتابي وبدأت دراستي ولكني ما كنت أفعل حتى سمعته يتكلم في لهجة شرسة كانه يتحدى انسانا أمامه قائلا :

يأخذون الكلب ويطلبون مني جنيها مقابل اطلاق سراحه ! جنيه ! هذا نصب ، نهب ... اخص على دى مصلحة.

وبصق بصقة كبيرة . ثم أتم كلامه ...

— ... مع أني افهمتهم أني حكيم ... حكيم باشي الأورطة التاسعة التي قهرت العصاة في الأبيض ودارفور . رجل مقامي معروف وماضي مفعم بجليل الأعمال . مصلحة دون ! لاتعرف اصحاب المقامات ... اخص ..!

وبصق بصقة أخرى . وكان يتكلم بدون أن يلتفت ناحيتي . ولكني كنت متأكدا أن الكلام موجه الى اذ لم يكن في القهوة غيرنا . فرأيت من باب المجاملة أن أعير حديثه اهتمامي . وقلت :

— جميع مصالح الحكومة بايظة .

فاحتد في كلامه وهو ينظر أمامه دائما وقال :

— الا هذه المصلحة . انهـا ليست بايظة فقط . انها غير موجودة .. أتصدق أنهم يرفضون شهادتي الرسمية بأن الكلب غير مكلوب وأنه ليس من الكلاب الضالة ، ويقولون ان الاجراءات يجب أن تتبع مجراها . اجراءات؟ هه !... سأريهم كيف تتخذ أمثال هذه الاجراءات معي ومع كلبي . سأريهم ...!

وضرب بشدة على المائدة والتفت الى هذه المرة وعيناه تشعان باللهيب وقال :

— لقد أرسلت عريضة اليوم الى وزير الحربية لتخلية سبيل كلبي في الحال .. في الحال .

فأجبته على الاثر .

— حسنا فعلت .

وفي الغد سافرت مع فرقة من طلبة المدرسة في رحلة الى الصعيد . وقضينا هناك أسبوعا كاملا تتنقل بين ربوعه متفرجين على آثاره العظيمة . وفي اليوم التـالي لعودتي الى القاهرة قصدت الى قهوتي المعروفة . فرأيت عويـا جالسا القرفصاء على الارض بجوار احدى الموائد وأمامه صندوقه ينتظر زبائنه . فناديته وسألته على الفور .

— ماذا جرى لـكلب أسعد بك ؟

فابتسم ابتسامة عريضة وقال :

— يعيش أنت !

— قتلوه ؟

— منذ أربعة أيام .

ألم يدفع أسعد بك المبلغ ؟

— يدفع المبلغ ! انه يرضى أن يدفع لهم عينيه ! ولا يتجاوز لهم عن الجنيه .

وشاهدت أسعد بك آتيا صوب القهوة يتوكأ على عصاه الغليظة ويسير في ثقل واعياء . ولما اقترب مني ابتسم لي ابتسامة هزيلة وسلم علي ثم جلس . ولاحظت على وجهه شحوبا كأنه قريب العهد بمرض خبيث . وأشار الى المقعد الذي أمامه وقال :

— تفضل اجلس

جلست وبدأنا نتحادث في أمور تافهة . وكانت لهجته مهلهلة ونظراته فيها بعض الشرود . ولم يتكلم بكلمة واحدة عن جيبي فعلمت أنه لايريد الخوض في هذا الموضوع . ثم خيم علينا صمت ثقيل فاستأذنت وقصدت الى ركني .

ومنذ ذلك الحين اختلت مواعيد أسعد بك ولم أعد أراه دائما في القهوة كلما ذهبت . وغير عادته في فنجان القهوة السادة الذي كان لايحيد عنه ولايزيد عليه واستبدل به بضع كؤوس من العرق . وكان كلما ثارت الصهباء في رأسه اندفع يتكلم في اسهاب ممض وبصوت مرتفع كأنه يصرخ أو يشتم . وكانت موضوعاته دائما لاتخرج عن سبه مصلحة الطب البيطري وسب العالم كله على السواء . كان يقول دائما :

— الدنيـا كلها نهب في نهب . اخص بلا قرف . وبدأ يضيق على شرب الزبيب ممقوتا يقول لي :

— لاتخش ضررا . أنا حكيم . ان الزبيب مقو للدم وفاتح للشهية . أحسن المشروبات كلها .

وأصبح مجلس أسعد بك لايطاق . فلم أكن أنعم معه بتلك المحادثات الممتعة . ولم يكن يتركني أذاكر دروسي في هدوء . بل كان دائما يقلقني بصياحه المزعج ويضطرني الى الانصات لموتحيذ كلامه . وكان اذا رآني مقصرا في الالتفات اليه جاء الى مائدتي ونقل مشروبه اليها واحتل مقعدا بجواري وبدأ يسح بشكاياته وشتائمه .

وحدث مرة أن جاء صاحب القهوة بحساب الشهر . وكان من عادة أسعد بك أن يدفع الحساب شهريا . فأخذ الورقة من يد الرجل وألقى عليها نظرة عابسة ثم صاح في وجهه :

— مائة قرش؟ جنيه! أما الصوص صحيح ان أدفع هذا المبلغ ماحييت ودعك الورق فتور ما هاق وجه صاحب القهوة . وأراد الأخير ان يتفاهم

معه في لطف فاقترب منه ومعه الحساب وأخذ يوضح له عدد الطلبات التي طلبها . فدفعه أسعد بك بشدة وصاح . . .

— اذهب من أمامي لن ادفع شيئا . كلكم لصوص أولاد كلب .

فاحمرت عينا صاحب القهوة وقال :

— اللصوص واولاد الكلب ياحبيبي هم الذين لا يؤدون ماعليهم :

— اخرس ! أتعرف من الذي تكلمه ؟ أنا اسعد بك حكمداري الأورطة التاسعة في الجيش المصري .

— وماذا يهم ؟ أنا أريد نقودي . ليس هذا الجنيه كجنيه مصلحة الطب البيطري الذي لم تدفعه انقاذاً لكلبك . هذا جنيه ثمن مشروبات جررتها من محلي . . . .

ورأيت سحنة أسعد بك قد انقلبت وصارت كسحنة النمر الهائج وقال وصوته يرتجف :

— ماذا تقول ياوقح ؟ جنيه الطب البيطري اجنيه الكلب ! أتظن أني قد بخلت بالجنيه في سبيل انقاذ كلبي ؟ اتجرؤ على هذا القول بالعين ؟ انا أرضى أن ادفع مائة جنيه لا جنيها واحدا من أجله . . ولكني لا ادفع للصوص اولاد حرام ، كلكم تستحقون ضرب الصرم ، ورأيته يدس يده المرتجفة في جيبه في حركة شاذة ويخرج ورقة مالية من ذات المائة قرش وينهال عليها تمزيقا في وحشية غريبة ويقول :

— أتستطيع ان تقول اني لا استطيع أن أدفع جنيها . .

ثم قام وأنشب أظافره في رقبة الرجل . وقامت بين الاثنين معركة حامية استدعيت من أجلها الشرطة .

وساءت أحوال أسعد بك فلم أعد أراه الا مخمورا رث الهيئة ممزق الملابس . قوى الشبه بهؤلاء المتشردين مدمني المخدرات الذين تراهم في الطرق يستجدون المارة . وكان لا يكف لسانه عن النقود وبالاخص عن الجنيه الذي لم يدفعه انقاذا لكلبه ، وكان يؤكد لي في حماس غريب أنه لم يدفع هذا الجنيه نكاية في مصلحة الطب البيطري وليفهمهم أنه ليس مغفلا أو ضعيفا . وكان يروي الحكاية لكل من يقع عليه بصره في القهوة أو في الطريق وهو يصيح ويهدد ويشتم . واذا لم يجد من يكلمه رأيته يحدث نفسه بحدة وهو يلوح بيده في حركات شاذة .

وانقلب من شحيح متكالب على المال الى مسرف متلاف لا تعرف يمينه ماتنفقه شماله . وسمعت أنه كثيرا ما يذهب الى مصلحة الطب البيطري ليفدي الكلاب الضالة ويخرج لها رخصا بمبالغ لا يستهان بها . وكان يحرضني دائما على التبذير ويقول :

— اصرف واجمع على نفسك .

وقابلت مرة محمد افندي زكريا الموظف بنيك الكومرسيال الايطالي فروى لي أخبارا مزعجة عن أسعد بك قال انه يشارب الآن مجنون ويخسر خسائر فادحة .

وحلت الاجازة السنوية وانقطعت عن زيارة القهوة ثلاثة أشهر كاملة . ولما عدت اليها رأيت كل شيء فيها لم يتغير . وكانت مائدتي المختارة في موضعها بجوار الجدول تظللها أغصان الشجرة العتيقة . فكأنني لم أفارقها الا منذ ثلاثة ايام . واستقبلني الوجوه التي أعرفها كل بابتسامته الخاصة . والتفت حولي مشرق الوجه وأنا أقول :

— كل شيء كما هو !

وبغتة قلت لعويس الذي كان يمسح مقعدي في هرج وسرور وبهجة مسه لمسح حذائي . .

— أين أسعد بك ؟

فتوقف عن عمله ورفع بصره الي وقد غابت ابتسامته وانقطع ضجيجه المرح وقال بلهجة قابضة :

— ألم تسمع عنه شيئا ؟

— كلا

— لقد ارسلوه الى المارستان . كانت حالة المسكين في المدة الأخيرة عجبة . وكنت انا الذي أعتني به .

— ما هذا الكلام ؟

— الحقيقة ما أرويها لك

— وهل يمكن أن أزوره في المارستان ؟

ومد عويس صندوقه تحت قدمي وبدأ يمسح في هدوء . وقال في لهجة غريبة :

— كلا ياسيدي لا تستطيع أن تزوره . . . لن تراه أبدا . .

ونكس رأسه ... فنكست رأسي أنا أيضا وبدأت استغرق في تفكيري الحزين .

في الصيف

للدكتور طه حسين

يبيعه من اليوم شباب القرش لفائدة مشروعهم

اطلبه من جمعية القرش ٤٥ شارع عابدين تليفون ٥٧٢١٦

« ثمن النسخة ١٠ قروش وللجملة ثمن خاص »